الإنسان والبحث عن الله

تطلعنا كتب التاريخ والجغرافيا، وأعمال الباحثين في علم اللغات وفك رموزها، والمكتشفات الأثرية، على معلومات مهمة عن حصول موجات متعاقبة من الهجرات العربية السامية من (شبه الجزيرة العربية) إلى أراضي الهلال الخصيب على شكل دفعات بدوية متتالية نقلت معها لغتها العربية الأم التي تفرعت منها مجموعة من اللهجات السامية، شرقية وغربية.

حافظت هذه الجماعات المرتحلة على أصولها وثقافاتها أثناء هجرتها واستيطانها لمساحات أوسع وأبعد من مراكز مواطنها الأصلية. أولئك المهاجرون كانوا من أجداد السومريين والأكديين والكلدان والبابليين والآراميين والكنعانيين، واستمرت هذه الهجرات حتى الألف الثالثة قبل الميلاد.

وتتالت هذه الهجرات المتعاقبة حتى وصلت إلى تشاد ودارفور وشمال أفريقيا (ليبيا وجبال البربر). وأبرزها كانت قد حصلت بعد الألف الثالثة قبل الميلاد لقبائل العموريين القادمة من الجزيرة العربية التي حكمت بابل و ماري ومعظم سوريا الطبيعية وصولاً إلى دلتا النيل شمال مصر، واستمرت حتى حقبة (الهِكسوس) (1775-1550ق.م) تقريباً.

أدت هذه الهجرات إلى التحول التدريجي لهذه الجماعات نحو المدينة نتيجةً لحاجتها إلى الاستقرار والتطور، فتحولت من جماعات مرتحلة بدوية رعوية إلى جماعات نصف رعوية ونصف زراعية بدايةً، ما لبثت أن استقرت حول مصادر المياه وتحولت تدريجياً إلى مجتمعات زراعية مستوطنة ومستقرة.

هذا التحول المهم لشعوب الشرق الأدنى القديم دفع باتجاه بناء المستوطنات (القرى والبلدات) والاستقرار فيها وحولها. شكّل هذا التحول كيانات قبلية وعشائرية مختلفة كان لا بد من تمايزها وإبراز سماتها الخاصة بها، وتشكيل هويتها المميزة في محيطها في محاولة لبلورة مفاهيم وقيم وعقائد خاصة بها. كما تطلب هذا التحول إيجاد أنظمة وطرائق إدارة وعبادات خاصة بها لتنظيم العلاقات فيما بينها وبين المجتمعات الأخرى.

هذا التطور دفع بها إلى البحث والتقصي عن مصادر القوة وتبني الاعتقاد الديني البدائي الذي استولد من التفكر في مظاهر ومكامن القوى الخارقة في الطبيعة والكون على شكل أنماط متعددة ومتشابهة إلى حد ما من الديانات التي تعتقد بتعدد الآلهة وتعتمد على رموز تعبّر عن هذا الاعتقاد والانتماء.

سعت هذه المجتمعات الفتية والبدائية للبحث عن القوة الخارقة والخفية الموجودة في قوى الطبيعة وظواهرها ونظام الكون، في محاولة فطرية سليمة للبحث عن إله، كتعبير فطري عن الحاجة للتقرب من هذا الإله الخالق الخفي.

تم اعتماد أنماط متعددة من طرائق العبادات. وشكلت هذه المعتقدات ضوابط اجتماعية تنظيمية وأخلاقية أسست لهوية وخصوصية وضوابط روحية أدت إلى (خلق نظام) يبقي هذه المجتمعات على قيد الحياة ضمن محيطها. من هنا حدث التطور من البداوة إلى الزراعة، التي قال فيها المؤرخون: (إن البداوة هي أصل الحضارة)، حيث تم التدرج نحو المجتمعات الزراعية المستقرة (القبيلة، والقرية، والبلدة، والمملكة). وهكذا تبنت هذه المجتمعات معتقدات روحية غطّت كل أوجه الحياة وأشكال القوة والطبيعة بمختلف مظاهرها وأوجهها المتعددة (الأمطار، العواصف، البراكين، الأنهار، الينابيع، الشمس، القمر، الكواكب، النار، الحيوانات، الجمال، الخصوبة، الموت والخلود، القوة، النبات).

بدأ الإنسان البدائي تدريجياً العمل على تطوير معارفه ضمن احتياجاته ومتطلباته الحياتية، محاولاً الحفاظ على وجوده وتقدمه ومدنيته، ما دفعه للتفكير الدائم المقرون بالبحث والتقصي عن أشكال ومظاهر القوة الخارقة في الكون والطبيعة، فعبّر عن هذه الحاجة باتخاذ أشكال مختلفة من العبادات والمعتقدات. وبالفطرة وحدها تدرج نحو تبني الآلهة المتعددة، متخذاً من هذا التبني نظاماً اجتماعياً أخلاقياً وتنظيمياً (أخلاق وسياسة واقتصاد).

كما أسس لنظام الحكم الذي تطور نحو الإمارات والممالك والإمبراطوريات، التي أنتجت بدورها المجتمعات الزراعية والصناعية والتجارية (نظام التبادل)، ودفعت نحو الاستقرار والوفرة الإنتاجية المنظمة.

اتجه تفكير وثقافة هذه المجتمعات إلى تبني مظاهر القوة الخفية الكامنة في الكون والطبيعة، لما لهذه القوى من تأثير في أنماط الحياة والوجود، التي تشكل لها مصدراً للعيش وأسباباً للحياة والموت، فكرست لها آلهة تمثل الأوجه المختلفة لهذه القوى الخفية والظاهرة، التي تتحكم بمصيرها وحركتها (فيضان نهر النيل مثالاً)، وما رافق ذلك من اعتقاد وممارسة تجلت بتقديم القرابين الحيوانية والبشرية لنهر النيل تقرباً واعتقاداً.

ومن الحضارات القديمة ما جسد التقوى والتقرب للإله بعبادة المصادر المؤثرة (الشمس والقمر والكواكب)، ومنها ما جسد أيضاً عبادة آلهة أخرى كهبة الطبيعة (الحيوانات والوحوش)، واتّخذها رمزاً وشعاراً وطنياً قبل أن تخترع الكتابة بالحرف والكلمة، حيث استخدم صور الأشياء والحيوانات للتعبير والدلالة،

فقام بنحتها ورسمها ونقشها على الصروح والصخور والأوابد التي لا تزال إلى اليوم شاهدة على عصره وحضارته.

عبّر الإنسان بواسطة هذه النقوش عن أفكاره وثقافته، وعمّا كان يؤمن ويعتقد به. وتعاطى السحر كدلالة وتعبير عن القوة الخفية الخارقة، فقد أعطى أهمية كبيرة للسحرة والسحر (قصة النبي موسى مع فرعون وسحرته)، كما اهتمَّ بالرؤى والأحلام، واستند في كثير من قراراته وتصرفاته إليها سلباً وإيجاباً (قصة النبي يوسف ورؤياه ورؤى وأحلام صاحبي السجن).

واهتمَّ أيضاً بعالم الموت، وعالم الأرواح السفلي والانبعاث الآخر. وأفرزت هذه البدايات الحضارية التي نسميها اليوم (الديانات الوثنية) مجتمعات زراعية وصناعية وتجارية متطورة، وأسست مجتمعات مزدهرة ابتكرت وسائل التواصل والاتصال والتبادل التجاري والثقافي فيما بينها. وساهم هذا الاتصال الدائم كثيراً في تقدم المجتمعات الزراعية البدائية وأهلها لإنتاج حضارات عظيمة متفاعلة فيما بينها، الأمر الذي أدى إلى تطوير المعتقدات الروحية وتعميق مفاهيمها وسموّها نحو معرفة الحقيقة وتبني التوحيد الأرقى تدريجياً، وجعلها تخطو بخطوات سريعة نحو تشكيل الإمبراطوريات الكبرى والممالك العظيمة، على الرغم من وثنيتها وتعدد آلهتها.

وفي حضارات بلاد الرافدين ووادي النيل والجزيرة العربية، وما بينهما، إضافةً إلى حضارات حوض البحر المتوسط (الإغريقية والرومانية والحضارة الفارسية التي وصل نفوذها إلى حوض المتوسط في فترات محددة من تاريخ المنطقة)، أمثلة أقرب للبحث، كونها الحاضنة الأولى للديانات السماوية التوحيدية (الموسوية والمسيحية والإسلام).

من ممالك سومر شمال الجزيرة العربية (بلاد الرافدين) إلى (مصر بلاد النيل وما يحيطها) حتى (عيلام) (أرض الأفغان)، يقول الباحث سيمسون نايوفتس في كتابه (مصر أصل الشجرة): «كانت سومر بها قرى كبيرة (إيردو و أوروك و أور ولجش وتيبور)، وبها معابد تعود إلى ما قبل 4000 عام ق.م. وبحلول عام 3500ق.م كانت بها مدن ذات صنّاع وتجار أحوالهم مزدهرة. وبحلول عام 3100 ق.م ربما كانت أوروك أكبر مدينة في العالم، حيث بلغ عدد سكانها 25000 نسمة، وكانت الزراعة المكثفة بكامل نشاطها، وكانت الكتابة التصويرية تستخدمها النخبة

السومرية على نطاق واسع، وكانت البلاد يجري تنظيمها على هيئة دول مدن يقودها (إنسي) (الرجال العظام)، وهم الحكام الذين يرأسون مجلس الشيوخ»[1].

يربط الباحث نايوفتس بين الحضارتين السومرية والمصرية بالمقارنة بين التشابه والتطور، وينسبه إلى التفاعل فيما بينهما عبر موجات من المهاجرين أو الغزاة الآسيويين (العموريين والكنعانيين والعبريين).

«من الواضح أن الأدلة الأثرية على تأثير بلاد ما بين النهرين بمصر في ذلك الوقت: من التكنولوجيا، إلى العمارة، إلى الفن، كان من الاتساع بحيث لا يمكن استبعاد التواجد الكبير للسومريين وأبناء شرق البحر المتوسط، هؤلاء ربما كانوا المهاجرين، أو الغزاة الذين يحملون قيماً زراعية وحضرية متقدمة ذات نمط سومري هم في أغلبيتهم من الساميين[2] القادمين من فلسطين وسوريا في شرق البحر المتوسط، وليس من سومر نفسها. وقد عُثِر على ما يزيد على 400 قطعة ذات أصل فلسطيني في عام 1988 داخل المقبرة - uj - التي تعود لعصر ما قبل الأسرات (قبل 3100 ق.م) في جبانة أم العقارب بابيدوس في مصر»[3].

يثبت نايوفيتس حصول هجرات سامية عربية متأخرة، ويبين مدى تأثيرها في تشكيل المجتمعات والإمبراطوريات الحضرية، التي أسست لقيم مشتركة لأنماط الديانات التي تعتقد بتعدد الآلهة وتنوع العبادات الطقسية والطبيعية، وتشكيل اللهجات ومن ثم اللغات، والتشابه الكبير لنمط عبادة الحيوانات وتقديسها، وتشابه طرائق الصناعة وفن العمارة فيما بينها، سواءً بالكتابة التصويرية أم بالنحت، فيقول بهذا الصدد: (هناك تشابه مذهل لا سبيل لإنكاره بين الفن السومري والمصري في الأسلوب والمضمون في نهاية عصر ما قبل الأسرات منذ قرابة 3300-3000ق.م. وتظهر على اللوحات والفخار والأختام والمزهريات والرقع ومقابض السكاكين والتماثيل موتيفات الحيوانات الملتفة حول بعضها، والأشكال البشرية عريضة الرأس ذات العيون الواسعة، والسمات الجنسية البارزة، والأسرى المقيدون الذين يؤكلون أو يعدمون. ويشير أقدم عمل مصري تماماً عثر عليه، وهو صلاية نعرمر (التي يعود تاريخها إلى 3000ق.م، وتوجد حالياً في المتحف المصري بالقاهرة)، إلى تطور مصر العام في ذلك الوقت، حيث كانت في موضع ما من التحول بين القيم الفنية الغرب آسيوية وقيمها الخاصة الناشئة: فالملك نعرمر وأتباعه وخدمه والضحايا الآسيويين

١- سيمسون نايوفتس: (مصر أصل الشجرة) (Egypt trunk of the tree) ج1 ص 70.

٢- يقصد بالساميين سكان ما بين النهرين وسوريا الطبيعية الذين ارتحلوا ما بين الفرات والنيل قبل وجود تسمية (اليهود) بقرابة 2700ق.م، كما لا علاقة للعبريين هنا باليهود أو بني إسرائيل.

٣- سيمسون نايوفتس: (مصر أصل الشجرة) ج1 ص 72.

وحورس الصقر وحتحور آوبات التي على هيئة رأس بقرة، جميعهم مصريون من الناحية الأسلوبية؛ بينما الحيوانات كانت سومرية من الناحية الأسلوبية، ومع ذلك فمن الممكن أيضاً الحديث على الأقل عن بعض التشابه في الأسلوب الفني عبر رقعة شاسعة من الأرض تمتد من سومر إلى عيلام[1] في الشرق إلى مصر وليبيا في الغرب، ولا سيما في نحت التماثيل، مما يثير تساؤلاً عما إذا كان الفن المصري تأثر بالفنون الآسيوية بشكل أساسي، أم أنه قد ظهر على نحو مستقل)[2].

ما أتوخاه باستخدام هذا المصدر الوصفي ليس المقارنة والبحث عن الأصول الفنية المتشابهة بين حضارات ما بين الفرات وبلاد الشام وبلاد النيل، بقدر ما أتوخى استعراض أوجه التشابه أو التطابق في طرائق البحث البدائي عن وجود الخالق ومحاولة عبادته بأشكال مختلفة عبرت من خلالها الفطرة والتلقائية الإنسانية عن حاجتها للخالق ورعايته، فالتقرب للإله اتّخذ أشكالاً مختلفة بتأليه عناصر الطبيعة والكون والظواهر الخارقة.

هذا الشعور التلقائي دفع باتجاه تبني الآلهة المتعددة والمختلفة لظواهر الطبيعة التي بحث فيها إبراهيم الخليل عن إلهه ومعبوده بداية في (النجم والقمر والشمس). وآخرون أيضاً بحثوا عن الإله في الأنهار والأمطار والأشجار، وفي تقديس الحيوانات وتجسيدها آلهة (العجل الذهبي لبني إسرائيل مثالاً). تم تجسيد هذه العبادة والتقديس بالرسم والنحت وبالمقابر والتحنيط، وغالباً ما كانت هذه الحيوانات المقدسة وبقاياها تستخدم كتعويذة (رقية) ترفع الأذى والشر وتجلب الحظ والخير لحاملها ومقتنيها.

كان للسحر دوراً مهماً وكبيراً في تلك المعتقدات والحضارات، ولعل قصة النبي موسى (صلى الله عليه وسلم) مع الفرعون والسحرة في سورتي طه والشعراء (القرآن الكريم) نموذجاً يؤكد أهمية السحر والسحرة في ذلك الوقت المبكر. أما الموت والبعث (الحياة الأخرى) فكانت له دلائل ورموز لا تزال شامخة ليومنا هذا (المقابر والأهرامات والمعابد المصرية والبابلية)؛ ونظام التحنيط (المومياءات الرائعة) الذي يجسد الإيمان بالعالم السفلي (الموت) والعالم الآخر (الخلود) كان نظاماً معمولاً به ومعتقداً في مصر القديمة، فالاهتمام بالتحنيط للجسد وإقامة الصروح الفاخرة له (الأهرامات)، وتأمين وسائل ضرورية ومقتنيات وكنوز نفيسة تدفن مع

١- عيلام: بلاد الأفغان (خراسان).

٢- سيمسون نايوفتس (مصر أصل الشجرة) ج1 ص 76-77.

المومياء دلت على وجود نظام صارم يؤمن بالحياة الأخرى، حتى لو تم التعبير عنها، بخلاف ما جاءت به الأديان التوحيدية فيما بعد.

صحيح أن عقيدة الحياة الأخرى لدى الفراعنة الأولين كانت تقتصر على القادة والملوك والأعيان والكهنة وقادة الجيش بدايةً، ولا سيما الملتزمين بكتاب الأخلاق والأنظمة الصارمة للملك الإله الأب والوكيل لحورس على الأرض، إلا أنه وبمرور الزمن عمّم هناك مفهوم الخلود والحياة الأبدية ليشمل العامة في مصر، بعد أن أصبح للموت آلهة (آلهة العالم السفلي)، إضافةً إلى الثلاثية الإلهية المتعددة (الأب والابن والأم). وهذا ما سوف أتطرق إليه في الفصول اللاحقة مع بعض التفصيل فيها.

مزجت عبادة قوى الطبيعة ما بين عبادة القوى الظاهرة والخارقة في الكون وما بين إنتاج هذه القوى من الحيوانات القوية، وكان ذلك مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالمجتمع الزراعي والإنتاج الغذائي والصناعي. وهذا الإنتاج من المفهوم التعبيري شكل هبات عظيمة من الطبيعة للإنسان، ودفعه لاعتماد نظام التقديس لهذه الحيوانات كنوع من الشكر والامتنان للإله الخالق؛ واستخدمت صورها وأشكالها كشعارات ورموز ورايات للقبائل والأقاليم؛ وشكلت هذه الحيوانات المصدر الغذائي الكبير الذي قدم للإنسان، مما كرس الاعتقاد بأن هذه الحيوانات هي مخزن الغذاء الذي تهبه الآلهة للإنسان.

من هنا برزت عادات وتقاليد تعلقت باحترام الحيوانات وتبجيل بعضها أو تحريم صيدها أو ذبحها، كما هو سائد حتى اليوم في بعض ديانات بلاد الهند. وتم تصوير الآلهة على شكل أجسام ورؤوس للحيوانات (كالصقر والثور والأسد)، واعتبرت هذه الحيوانات رمزاً للقوة والشموخ والحماية (أبو الهول في مصر، وأسد بابل، وثور بني إسرائيل، ونسر أمريكا). يذكر نايوفيتس في كتابه بهذا الخصوص: (ظل حورس واحداً من آلهة مصر الرئيسة منذ البداية حتى النهاية المتعارف عليها لتاريخ مصر عام 395م. وظلوا يصورونه بأشكال مختلفة: أي الصقر شعار (الطوطم) قرص الشمس المجنح، والإنسان الذي له رأس صقر، والإنسان الذي يضع أغطية رأس على هيئة تاج الأرضين المصري المزدوج (بشنت)، أو تاج (أتف) مزيج من تاج الوجه القبلي الأبيض على جانبيه ريشتا نعام حمراوان، أو قرص الشمس، وقد كان واحداً من أكثر آلهة مصر حباً، حيث كان يجمع في أشكاله المختلفة الكثير من الصفات النافعة النبيلة: الشمس، والمُلك الإلهي، والإحساس بالواجب، والانتقام القائم على الحق والقوة والعلاج والحماية، والنزوع إلى عمل الخير

في محكمة الحياة الآخرة، ونعومة الطفل وبراءته، والنجاة من المصاعب والابتلاءات التي عادة ما يبتلى بها الطفل المختار في الميثولوجيا)[1].

فيما يتعلق بالطبيعة وظواهرها، كان قرص الشمس يحظى بالاهتمام الأكبر، كون الشمس تعبر عن مفهوم الزمن، والدفء والخصب والنمو والنضوج وأسباب البقاء.

اعتُمِد الملك أمنحوتب الرابع (أخناتون) أول فرعون مصري يدعو لعبادة الإله الواحد الشامل: قرص الشمس، تجسيداً لقدرة الله (آتون) بديلاً عن الإله (رع) في القرن الرابع عشر ق.م، فألغى بهذا المعتقد كل عبادات الآلهة المتعددة المحلية، وأغلق معابدها وحطم صورها وأصنامها. ويعبر سيمسون عن أهمية الشمس في الديانة المصرية القديمة:

(كانت الشمس (رع) محورية باستمرار في الديانة المصرية. وكان حورس وتوم (آتوم) الإله الخالق، ورع الإله الملكي وإله الشمس، وأوزيريس ملك الموتى، وآمون رع الإله الملكي وكبير الآلهة في الدولة الحديثة، وكثير غيرهم يرتبطون بالشمس أو أصبحوا متأثرين بالشمس، حيث باتت لهم أهمية قومية، وفي هيليوبولس (أون)[2] على الأقل، اعتباراً من بناء معبد الشمس في هيليوبولس (أون) قرابة (2260ق.م)...

رُبِط رع، أي الشمس، وأتوم بطائر أبي فصادة، ثم بالبلشون أو طائر أسطوري يشبه البلشون)[3]

بما أن البحث يتركز على كيفية تطور عقيدة التوحيد (الإله الواحد)، التي تدعو إليها (الموسوية والمسيحية والإسلام)، لا أرى ضرورة للبحث والتوسع بالخوض في تفاصيل الديانات السومرية والبابلية والكنعانية إلا بالقدر الذي يخدم البحث الذي يثريه الاستشهاد بما اكتشفه وكتبه الباحثون وعلماء الآثار والمؤرخون، الذين تخصصوا في هذا المجال، مستهدفاً بذلك الإضاءة على التواريخ والأحداث والظروف الموضوعية التي أدت إلى ظهور الديانة الموسوية (التوحيدية الأولى)، وما شاب مسارها الموصوف في الإنجيل والقرآن من تغيير، وربما التغير الجوهري الذي طرأ عليها جنوح الكثيرين من معتنقيها نحو الانعزال والتقوقع على الذات، ومحاولة تفسير حادثة موت النبي موسى (صلى الله عليه وسلم) الغامض، وذكر الأسباب الموضوعية التي أدت إلى عدم انتشار هذه الديانة الهدائية، وكيف أصبحت ديانة وراثية منغلقة

١- سيمون نايوفيتس (مصر أصل الشجرة) ج1 ص 41.

٢- هيليوبوليس (أون) هي عين شمس الحالية بمصر.

٣ - سيمون نايوفيتس (مصر أصل الشجرة) ج1 ص 45.

بخلاف الديانتين التوحيديتين (المسيحية والإسلام) اللتين انتشرتا بقوة وانتقلتا إلى العالمية والكونية، على الرغم من أن دعوة موسى في جوهرها كانت أممية هدائية، وهذا ما سوف أتطرق إليه في فصول لاحقة.

وكمقدمة للخوض ببعض التفاصيل الأوسع سأستعرض بعض ما كتبه سيمسون نايوفيتس بما يخدم هذا الجانب من الموضوع: (كانت الآلهة من نواحٍ كثيرة، على التعاقب، تعديلاً للتوحيد المشوب المحلي، وهو عنصر يتوالف معً تعدد الآلهة الذي كان يمنح الوضع التفضيلي لأحد الآلهة، ولكنه كان يشجع عبادة تعدد الآلهة، وفي وقت متأخر جداً كان هناك التوحيد المشوب (ليهوه العبراني)[1] وأهورامزدا الفارسي الذي كان يقضي بالعبادة المنفردة لإله قومي أقوى من سائر الآلهة، ومهّد الساحة للتوحيد. ولم توجد آلهة التوحيد المشوب المحلية والقومية والآلهة الرئيسة في سومر ومصر فحسب، بل وجدت في تواريخ مختلفة في كل مكان من العالم تقريباً، ولكن أشكال التوحيد القومي والحصري لنمطي يهوه وأهورامزدا لم توجد إلا في إيران وإسرائيل. ويبدو أن لاهوت الإله الرئيس في ديانات تعدد الآلهة كانت استجابة مترابطة ترابطاً منطقياً مع ظهور الجماعات الزراعية المستقرة والإقليمية والقومية المركزية والحاجات السياسية التي ولدتها تلك المجتمعات. ومن المهم الإشارة إلى أن مفهوم الإله الواحد الأقوى من سائر الآلهة كان متوافقاً مع الحاجات التراتبية التي ظهرت مع هذا النوع من المجتمع)[2].

١- يهوه الإله الذي اعتمده بنو إسرائيل في فترة التيه، وهو إله العرب المدينيين والقينيين، ورد ذكر اسمه في ألواح أوغاريت وزوجته عشيرة، وهو إله الظلام والبراكين، ولا يظهر إلا ليلاً. (انظر الصورة رقم 1): يهوه وعشيرة على مكتشف فخاري أثري من أرض مدين.

٢- سيمون نايوفيتس: (مصر أصل الشجرة) ج1 ص 89-90.

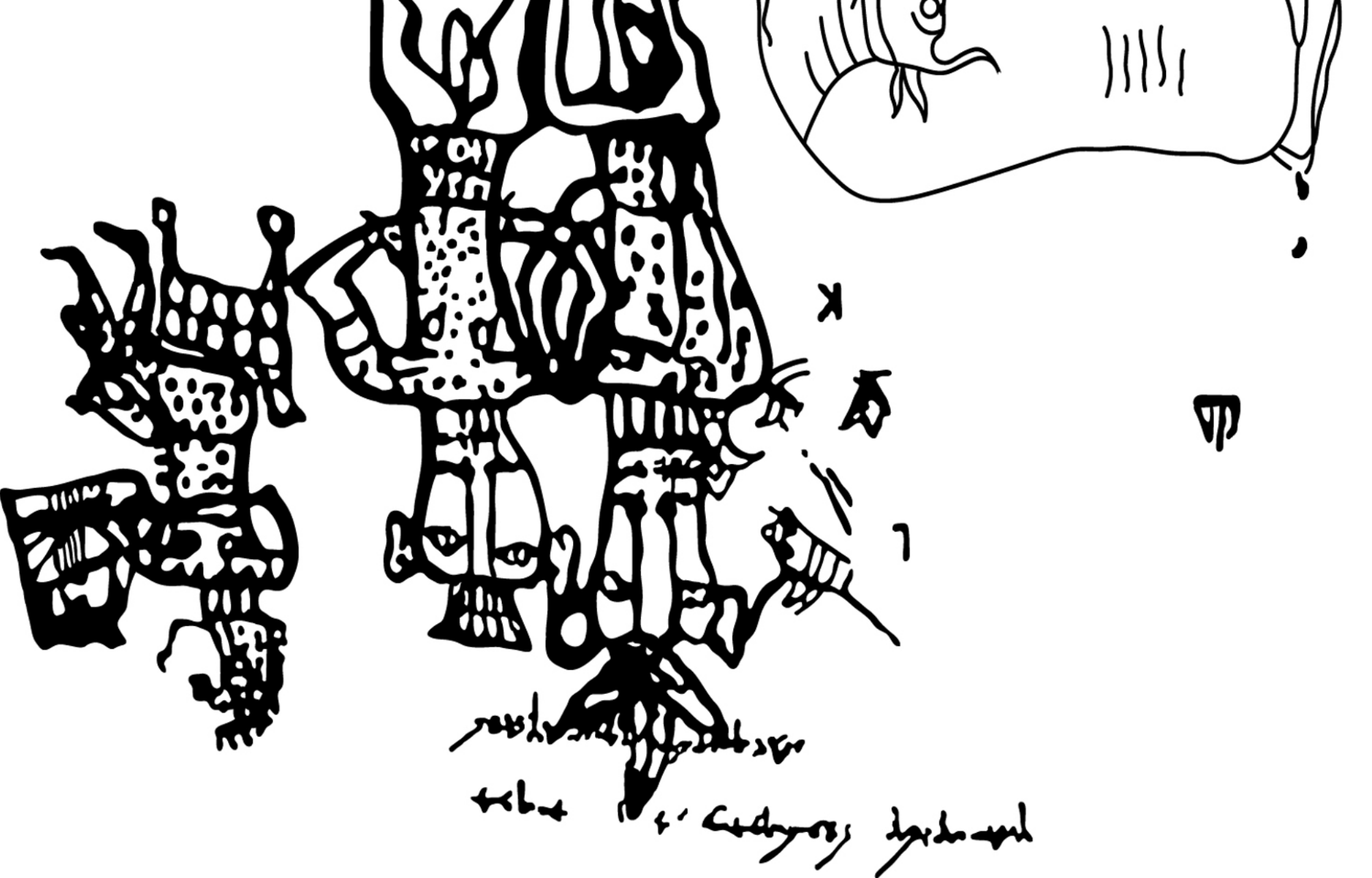

ما ورد ذكره عن الإله القومي والسياسي، والمتوافق مع الحاجات التراتبية لجماعات تتوق إلى الانتقال من البداوة إلى الكيان المدني والزراعي المستوطن، هو ما سوف يكون محوراً أساسياً ومهماً في هذا البحث. حيث تطرح كثير من الأسئلة وتوضع العديد من إشارات الاستفهام حول الادّعاء التوحيدي والإله القومي الخاص، الذي يبحث عن شعب له ليكون شعبه الخاص، وعن شعبٍ لا يبحث عن إله له إلا بالقدر الذي يشرع له هذا الإله الوثني أرض ميعاد.

وهنا تنقلب المعادلة المصرية المتبناة رأساً على عقب، فالملك أخناتون التوحيدي لمملكة قوية وراسخة اعتمد إلهاً واحداً توحد به جميع العبادات المحلية للإمبراطورية الممتدة من الفرات إلى النيل، وهذا ما لم يتوافق والأهداف العبرانية، لأن هذا الإله الواحد لن يجعل منهم شعباً خاصاً، وبالتالي لن يوفر لهم أرض الميعاد. فدعوة موسى الهدائية تتعارض ومصالح هذه الفئة من بني إسراءيل، ولا تحقق طموحاتهم بتشكيل وطن وأمة. سأستعين بما حققه الباحثون المتخصصون لربط الحقائق ببعضها، ولتحقيق الغاية المرجوة بالوصول لمعرفة الحقيقة المجردة والغائبة أحياناً في عالمنا المادي المعاصر.

يقول العالم الألماني يان أسمان في كتابه (التمييز الموسوي)، وأرى في قوله شرحاً منطقياً وعلمياً لما تقدمت به في الصفحات السابقة حول بحث الإنسان عن الله، ومثالنا في ذلك آيات قرآنية من سورة الأنعام: محاولة النبي إبراهيم البحث عن الله في النجم والقمر والشمس والتفكر بالقوة الخارقة، وحتى في طلبه من الله أن يريه كيف يحيي الموتى (وعند دراستنا لتاريخ الأديان في مصر لا بد أن يجانبها كل من الشكلين للتوحيدية):

«وعلينا أن نفهم نحن الإصلاح الديني الذي قام به الملك أخناتون الذي رفض في منتصف القرن الرابع عشر ق.م جميع معالم الدين التقليدي، ووضع مكانه عبادة إله الشمس الواحد، على أنه عبادة توحيدية ثورية انعزالية. كما علينا أن نفهم لاهوت العصر الرمسيسي الذي لحق ذلك، والذي طُوِّر مع تقاليد عبادة الآلهة المتعددة، على أنه توحيدية تدريجية ضامنة لها متشابهات كثيرة مع الأديان المتأخرة لشعوب ما بين النهرين وشعوب اليونان والهند». ويتابع أسمان بهذا الصدد: (كانت توحيدية أخناتون هي توحيدية المعرفة، وتخفي خلف ذلك صورة جديدة للعالم، وترجع كل ما يكون - أي الواقع كله - إلى تأثير الشمس التي تبعث النور بواسطة إشعاع ضوئها، والتي تنتج الزمن أيضاً بواسطة حركتها. ومن اكتشافه أن الشمس هي ليست مصدر النور وحسب، وإنما مصدر الزمن أيضاً.

استنبط أخناتون أن الآلهة الأخرى ليست لها علاقة أو تأثير في تكوين العالم والمحافظة عليه؛ وعلى ذلك فهي غير موجودة، وليست سوى كذب وهراء، لذلك أغلقت معابدها في عهد أخناتون وأزيلت تقاليد تقديسها واحتفالاتها، وحطمت صورها وأبيدت أسماؤها، وهذا يختلف تماماً عن مشروع موسى، فما كان يهم موسى ليس تعليل الكون من جديد، وإنما إيجاد نظام سياسي جديد وتشريع قانون واتحاد جديدين لهذا العالم. وكان مطلبه هو التوحيدية السياسية، وهي توحيدية ترابط، فهي لا تقول (ليس هناك إله غيري)، إنما تقول: (لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي)[1]؛ وهذا يعني أن عليك ألا تعترف بآلهة الآخرين. وعلى هذا، فإن وجود آلهة للآخرين بعكس أخناتون معترف بوجودهم هنا، ولو لم يكن كذلك لما كان هناك معنى لمطالبته بالوفاء له، فهو لم ينكر وجود آلهة أخرى، إنما منع عبادتها، لأن عبادتها تعني ضلالاً وإثماً كبيراً. وعلى هذا فإن مفهوم (الدين الباطل) يختلف في معناه عند أخناتون وموسى، فبينما هو عند أخناتون صورة عالم باطلة، يصبح عند موسى خيانة وانفساخاً للعهد. الأول الذي هو طبيعة معرفية أو أمر مصيري، والثاني طبيعة سياسية أو أمر ترابطي. والتوحيدية الإنجيلية[2] هي في نواتها

١- العهد القديم الخروج 20: 3.

٢- يقصد الكاتب بالإنجيلية - التوراتية حصراً، فالمعنى للتوراة والإنجيل واحد (الكتابية أو البشارة).

سياسية. وتظهر هذه النواة في سفر الخروج، وكذلك في سفر التثنية والاشتراع بكل وضوح)[1].

أتفق مع يان أسمان، بما ذكره عن وجود توجه سياسي قومي شاب الموسوية، وأتفق معه كذلك بأن تفكير وثورة أخناتون كانت نتيجة لممارسة ومعرفة متطورة جداً في زمانها، ونابعة من تجربة فطرية باحثة عن وجود الإله الحق ونفي وجود الآلهة المتعددة، أو نفي أي قدرة لتلك الآلهة المدعاة التي نبذها وحطم صورها هذا الملك المفكر والمبدع. وفي هذا الفعل تكرار لتجربة النبي إبراهيم الخليل (صلى الله عليه وسلم) في تحطيمه للأصنام في أوركلدان العراق وبحثه عن الإله الحقيقي من خلال خضوعه لتجربة البحث عن الله في النجم والقمر والشمس ووصوله إلى اكتشاف الإله الواحد، الذي خلق هذه المظاهر والقوى الكونية كلها، وكأنما تجربة إبراهيم وتاريخ التوحيد يعيد نفسه هنا في قصة أخناتون ودعوته!

في هذا الفعل يحفظ الملك أخناتون التوحيدي لمصر موقعها الرائد في أنها (مصر أصل الشجرة)، التي نبتت جذورها الأولى في منطقة تمتد بين الفرات والنيل والحجاز وما بينهما في المثلث التوحيدي العظيم الذي شكل (الأرض التي باركنا فيها).

أما فيما يتعلق بالشق الآخر من قول أسمان، من أن دعوة النبي موسى (صلى الله عليه وسلم) دعوة سياسية وقومية ترابطية مع ما بُحِث له فيما بين يديه من الرواية الكتابية التي استند إليها فهو محق في استنتاجاته المبنية عليها - وقد يكون ذلك صحيحاً - وعلى ما جاء في أسفار (الخروج والتثنية أو الاشتراع)، التي تبدو وكأنها تؤسس لشعب ووطن باسم دعوة التوحيد ووعود الإله يهوه المنسوبة داخل هذه الأسفار التي (حُرِفَ فيها الكلام عن مواضعه). هذا إذا كنا نسلم بالمطلق بصحة هذه الأسفار، ونقر بأنها (توراة موسى) الموحى بها إلهياً!

لكننا ممن يقولون إن التوراة التي أنزلت على النبي موسى هي غير التوراة التي بين أيدينا بصيغتها الحالية التي كتبها (الأحبار والكتبة في بابل)، لا سيما عندما يؤكد القرآن الكريم في قول الله تعالى للكتبة المحرفين: ﴿..قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[2]. وكذلك عندما ينسخ السيد المسيح (صلى الله عليه

١- يان أسمان: التمييز الموسوي ص 49-51.

٢- القرآن الكريم سورة آل عمران الآية 93.

وسلم) العديد من دعواتها، فإن الرواية تبدو مختلفة من حيث الجوهر والمضمون والتفكر وطرائق العبادة.

من هنا تأتي مطالبنا المتكررة للكتّاب والباحثين والمتخصصين بالحكاية الكتابية ودراساتها، والغربيين منهم بصورة خاصة بضرورة الاحتكام والمقارنة بين الكتب السماوية الثلاثة وضرورة الاستئناس بالقرآن الكريم، على سبيل المعرفة والإضاءة على البحوث لإثرائها واستخلاص الحقائق والمعرفة منها، والاستعانة بالمراجع التاريخية المهمة، بحيث يكون البحث والاستقصاء موضوعياً وبعيداً عن الموروث النمطي للثقافة الغربية، الذي يأخذ بالبحث إلى اتجاهات فكرية مركزية يجعلها تدور في حلقة مفرغة تطيح بالبحث الجاد عن الحلقة المفقودة بين الإسلام والمسيحية.

ليس بالضرورة عندما يطلب من الآخر قراءة ودراسة الرواية القرآنية أن يكون مدعواً للإيمان بها أو اتباع ديانتها، لكن من الضروري جداً فهم رسالة الآخر والاطّلاع عليها والأخذ بالقواسم المشتركة التي تجمع بين الرسالات جميعها.

سوف آخذ بالاعتبار أن جميع الأديان التوحيدية ذات منبع إلهي واحد، وأن هذه الحقيقة مطلقة، وأن الأنبياء تلقوا رسالاتهم من مشكاة ربانية ووحي واحد، وقد جرت محاولات كثيرة لتشويهها والإضافة عليها والخروج عن جوهر تعاليمها التي تتناقض ومصالح فئة من الكهان والأحبار ورجال السياسة والمال وشيوخ السلطان ومصالح الملوك والسلاطين والحكام على مدى العصور المتعاقبة، كما كان الحال مع (فرعون وموسى). يقول المستشرق البريطاني مونتغمري وات في كتابه (الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر): (وبطبيعة الحال، فمن الواضح أن الباحثين الغربيين لم يشيروا إلى تحريف في التوراة والإنجيل، بينما ظل بعض المسلمين يؤمنون بذلك، بل إنه من الممكن حتى أن تفهم العبارات القرآنية الواردة بهذا الشأن على نحو مجازي أو على نحو تخطيطي بالمفهوم الذي شرحناه آنفاً (المفهوم الدياغراماتي)، وكشواهد لشيء أكثر جوهرية (كدلالة على شيء أساسي بشكل كبير). وحتى إذا كان كل وحي (المقصود كل دين) كما وصل إلى كل نبي نقياً وغير محرف، فإنه بمرور جيل أو جيلين من الممكن بسهولة أن يتسرب التحريف إليه. وكان من الطبيعي على سبيل المثال أن يهتم المسيحيون بالدفاع العقلي عن عقيدتهم ضد انتقادات اليهود، ولكن بعض المسيحيين كانوا يشعرون بالدونية، فشرعوا بالمبالغة بطرائق مختلفة تتسم بالحذق والمهارة. وعلى كل حال، فإن كل حركة دينية تبدأ نقية تكون عرضة للتحريف في غضون جيل أو جيلين. والدليل على ذلك الإنكار اليهودي للمسيح، ورفض المسيحيين لـ محمد (صلى الله عليه وسلم كنبي، وبناء المسلمين لسلسة من الدفاعات الفكرية ضد المسيحيين واليهود على حدٍّ سواء.

فلو احتفظ يهود العصر ومسيحيوه بيهوديتهم ومسيحيتهم في حالة نقاء لاعترفوا بالرسالة التي ألقاها الله عليهم عن طريق (محمد)، تماماً كما فعل ورقة ابن نوفل، حيث أفادت الروايات أن استجابته كانت إيجابية لمحمد. ومن هنا يمكن القول إن إشارات القرآن إلى (تحريف) لحق اليهودية والمسيحية بصورتهما الموجودة على أيامه قول صحيح. وثمة ملمح آخر مهم في الصورة القرآنية لإبراهيم، وهي رفضه لعبادة الأصنام التي كان أبوه وشعب أبيه عاكفين عليها)[1].

بذكر المستشرق وات لإبراهيم الخليل (صلى الله عليه وسلم) وللبرهان على قصة إيمان الملك أخناتون المعرفي بالله الواحد يجدر بنا العودة إلى قصة النبي إبراهيم ورحلته في البحث عن الله، مع ملاحظة الفارق الزمني والمكاني في الحالتين. وعلى سبيل الاستنتاج المعرفي، قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ۞ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ۞ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ۞ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ۞﴾[2]

يلاحظ هنا الفارق بين إيمان إبراهيم وموسى عليهما السلام، وبين إيمان الملك أخناتون. فإبراهيم استجاب له ربه حين بحث عنه ﴿كَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ﴾. على الرغم من ذلك حاول إبراهيم تجسيد إيمانه بالظواهر الحسية (النجم، والقمر، والشمس)؛ ظواهر قوة الطبيعة. وفي هذا التصرف إيمان خفي يحاول التعبير عنه وهو (الفطرة). الأمر عينه حصل مع النبي موسى (صلى الله عليه وسلم): كان مؤمناً مؤهلاً هذه المرة، ليس لأنه مصري أو إسرائيلي (نسبةً إلى يعقوب)، بل لأن موسى كان في الجانب الآخر النقيض من ديانات الفراعنة السابقين (لديانة توحيد أخناتون)، التي اعتنقها مصريون وكنعانيون وعبرانيون سراً وعلانية، كما ثبت قرآنياً وتاريخياً. ولم يكن اصطفاء الله لموسى لإخراج بني إسرائيل من مصر بدايةً، بل كانت دعوة لفرعون وقومه إلى التزام التوحيد لله الواحد، ورفع

١- مونتغمري وات: (الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر) ص 169-170.
٢- القرآن الكريم سورة الأنعام الآيات 75-78.

الظلم والعبودية. وعندما نعلم أن فرعون الخروج كان قد انقلب على ديانة وثورة أخناتون التوحيدية وعبادته الإله الواحد التي بشر بها النبي يوسف الصديق (صلى الله علبه وسلم) من قبل في أرض مصر ببينات وفضائل شهد بها القرآن الكريم: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[1]. ﴿وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾[2]

إن ما يثبت القول إن موسى بُعِث رسولاً إلى مصر أولاً (إلى فرعون وقومه): ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي۞ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى۞ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى۞﴾[3].

والتذكر هنا إخبار بالمعجزات التي أوقع الله بها الضرر على آل فرعون على يدِ موسى قبل الخروج من مصر مع صحبه وليس مع قومه جميعاً.

حاولت جاهداً البحث عن ذكر اجتهاد النبي إبراهيم ومحاولته معرفة الخالق التي وردت في القرآن الكريم داخل الرواية التوراتية، إلا أني لم أجد ما يفيد بذلك، لكن كل ما وجدته توراتياً كان ينحصر بالاهتمام والسعي الحثيث إلى امتلاك الأرض، وتمييز شعب الرب وسلب فلسطين، مما زاد من قناعاتي بأن التوراة التي بين أيدينا ليست هي التوراة التي نزلت على موسى، وأن الكتبة والمدونين في عصور متأخرة جداً عن عصر نزولها قد انحرفوا بمحتواها ومضمونها باتجاه الكيان السياسي الانقلابي والقومي المتعلق بالأرض التي كانوا يعرفونها جيداً. وهذا ما يثبت صحة ما جاء به الباحث يان أسمان حول الإله التأسيسي السياسي القومي، مع الاختلاف معه عندما ينسب هذا التصرف والتبني إلى النبي موسى في وقت أغفلت فيه حقيقة زجّ الأحبار والكتبة لأفكار وتعليمات داخل الرواية نسبت كذباً إلى موسى، بما يتوافق ومصالحهم الخاصة والمادية بعيداً عن التوحيد والوحي. هذا التدوين والتغيير لا يخفى على الباحثين في الدراسات الكتابية، لا سيما تلك النصوص التي تناقض بعضها بعضاً

١- القرآن الكريم سورة غافر الآية 28.
٢- القرآن الكريم سورة غافر الآيات 34.
٣- القرآن الكريم سورة طه الآيات 42-44.

ولا تشكل أكثر من لاهوت متحجر لا يعتد به أساساً لقراءة التاريخ وحقائق العلم والمنطق والمكتشفات الأثرية.

يبدأ الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين بوصف مولد إبراهيم ومعه ابن أخيه لوط (صلى الله عليه وسلم) وخروجهما إلى أرض غربتهما (كنعان)؛ هذا ما تعيره القصة الكتابية الاهتمام الأول. وتتحول القصة في الإصحاح الثاني عشر من سفر التكوين إلى إعطاء إبراهيم ونسله من بعده أرض كنعان كلها ملكاً أبدياً. سيكتشف القارئ دون عناء التوجه الكتابي نحو أرض فلسطين دون ذكر لإيمان أو دعوة توحيد لإبراهيم، ويتحول الاهتمام إلى وعدٍ لإبراهيم ولنسله من بعده بأرض تمتد من الفرات إلى النيل مع ضرورة التحريف والتلاعب في نسله وبكورية ولده إسماعيل، وتحريف رواية الأمر الإلهي لإبراهيم للتضحية بولده البكر، ونسب الرواية إلى ولده غير البكر (إسحاق)، وهذا ما شكل الإقصاء المبكر داخل الرواية وقبل رواية الخروج من مصر، ولكن من هو إبراهيم الخليل؟ ولمن ينتمي حقاً؟

من المعروف تاريخياً انتماء إبراهيم إلى قبائل الجزيرة العربية التي ارتحلت من جنوب الجزيرة إلى شمالها طلباً للمياه والمرعى بعد موجة الجفاف الشديدة التي ضربت أجزاءً كبيرة من جزيرة العرب، حيث ارتحل أجداده إلى شمال الجزيرة (أوركلدان)، ومنها إلى مصادر المياه على نهري دجلة والفرات، حيث تشكلت هناك بادية العرب الأولى الآرامية بعد العرب البائدة (سيل العرم وثمود وعاد الأولى والثانية). ومن المعروف أن إبراهيم كانت له علاقات تجارية وسياسية مع الحجاز وسيناء ومصر وبادية الشام، وكان يعرف طرقها وممراتها ولهجاتها، وله أغنام وجمال وتجارة هناك، وكان يتمتع بالاحترام والتقدير أينما حلّ في جزيرة العرب ومصر؛ وأنه أول من رفع القواعد من البيت العتيق مع إسماعيل بكره في مكة المكرمة، وكانت تدعى أرض (فاران) توارتياً.

يقول سفر التكوين من التوراة الإصحاح الثاني عشر: (وَحَدَثَ جُوعٌ فِي الأَرْضِ فَانْحَدَرَ أَبْرَامُ إِلَى مِصْرَ لِيَتَغَرَّبَ هُنَاكَ لأَنَّ الْجُوعَ فِي الأَرْضِ كَانَ شَدِيداً)[1]. المقصود هنا أرض فلسطين الجنوبية ما بين القدس وبئر السبع. سأتفق مع النص التوراتي التكوين 2: 10 دون متابعة لبقية النص من 11-20 في الإصحاح ذاته، والذي يصف إبراهيم (صلى الله عليه وسلم) (بالقواد) لتقديمه زوجته سارة إلى فرعون مصر على أنها أخته، ليصبح له خيراً بسببها (من فضة وذهب

١- العهد القديم سفر التكوين 12: 10.

ومواشٍ وعبيد وافرة جداً)، كما تقول الرواية الكتابية. ويرد التسويغ ورتق الفجوات في حاشية الشرح للكتاب المقدس بأن شرف المرأة لم يكن معروفاً، وإن البشرية تدرجت في معرفته، وتشيد بتضحية سارة مع الفرعون. وفي هذه الحالة تكون حياة الزوج مفضلة على شرف المرأة، كما تقول الحاشية!

هذه التسويغات تستفز الشك والريبة في أن تكون تلك العبارات كتابية أو إلهية أنزلها الوحي في كتاب يعتد به ويعتمد ككلمة (الله المقدسة)!

بينما يبجل فيه القرآن الكريم توراة موسى ويصفها بالكتاب المنير، أتوقف هنا عند ما اتفق فيه مع التوراة في عبارة (وَحَدَثَ جُوعٌ فِي الأَرْضِ): إنها عبارة تحمل صدق الخبر والحقيقة التي أريد بها إضفاء لباس اللاهوت والورع والتقوى، بخلاف الرواية التي سوف تعود بنا إلى إجراء الدراسة الجغرافية والتاريخية والمناخية وحركة الهجرات المتعاقبة لمنطقة تمتد من الحجاز إلى جنوب شرق البحر المتوسط في حقبة اشتد فيها الجفاف والجوع ذكرتها الرواية الكتابية لتحديد الأسباب الموضوعية التي أدت إلى حدوث هذه الهجرات الكنعانية العمورية والآمورية والعبرية، وما سمي تاريخياً بـ (الملوك الرعاة الهكسوس) إلى دلتا نهر النيل، وما سمي توراتياً (أرض جاسان) بين فرعي النيل دمياط ورشيد، واستقرار النبي يعقوب وبنيه هناك بعد تآمرهم على أخيهم يوسف وبيعه إلى مصر. وعلى ما تذكره الرواية التوراتية، استمرت هذه الإقامة 430 عاماً). لنستنتج ما إذا كانت هذه الهجرة لله، كما حدث مع الأنبياء إبراهيم ومحمد عليهم السلام، أم كانت هجرة ونزوحاً ناتجاً عن ظروف اقتصادية ومناخية رعوية استيطانية لا علاقة لها بالتوحيد والدعوة إليه.

يقول الأستاذ توماس طمسن في كتابه (الماضي الخرافي التوراة والتاريخ):

(مع بداية قرابة عام 1600ق.م[1] دخلت فلسطين عصراً مطولاً من فترات الجفاف المتكررة التي دمرت زراعة المرتفعات وكانت ترتكز على الزيتون والعنب لمدة قرابة قرن ونصف. وأدى عدم الاستقرار الاقتصادي لهذه المناطق من فلسطين إلى أن صارت المرتفعات مهجورة هجرة شبه تامة، ولم تنتج سوى مساحات قليلة، كمجموعة القرى الصغيرة الواقعة في الوديان المحيطة في شكيم (نابلس)، أو تلك الواقعة على طول وادي ايالون قرب أورشليم (القدس). وثمة بعض المؤشرات على أن الريف أصبح مزعزعاً أو خطيراً في معظم المناطق.

١- هي الحقبة التي تتحدث عنها التوراة في التكوين 20: 10.

لقد اختفت حياة القرى الصغيرة عندما صار السكان يلتمسون حماية البلدات الأكبر حجماً والأكثر استقراراً)[1].

وسبقت تلك الحقبة التي تحدث عنها طمسن أزمان مبكرة امتدت لقرون عدة بعد حدوث تغيُّر مناخي لمنطقة شاسعة امتدت من جنوب وشرق البحر المتوسط إلى حافة المنطقة الجنوبية من الجزيرة العربية، ما بين الحجاز والتيماء وعسير وجبال وحدود اليمن. أدى هذا التغيير المناخي لتدني مستوى الهطولات المطرية وارتفاع شديد بدرجات الحرارة شمل سيناء التي كانت خارج حدود مصر، حيث كانت مرتبطةً بالجزيرة العربية (برية وجبال فاران) سيناء والحجاز، مما دفع إلى حدوث هجرات واسعة ومتعاقبة، حيث انحصر الوجود البشري في مواطن الينابيع ومساقط مياه الأنهار ومجاريها والواحات التي حولها. وكان وادي النيل ونهرا دجلة والفرات من أهم هذه الملاذات الآمنة (ما بين الفرات والنيل). ودفع هذا التغيير المناخي والجفاف السكان في المناطق الليبية وجبال البربر إلى الهجرة طلباً للماء والزراعة والمرعى.

هذا الجفاف والمناخ وحده من حوّل العموريين والكنعانيين[2] والعبرانيين الآسيويين إلى مهاجرين ناجين من المجاعة والقحط، ما سُميَّ خطأً (الغزوات الآسيوية إلى دلتا النيل) (..الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا..)[3] ، وحدث ذلك أيضاً في الجهة الغربية من الدلتا، حيث كانت الهجرات من ليبيا وشمال أفريقيا المغربية إلى دلتا النيل وفروعه الغربية.

وكان من الطبيعي أن يترافق مع تزايد هذه الهجرات حدوث تبدلات وانتقال وتمازج للثقافات والعبادات والمعتقدات المختلفة التي حملها معهم أولئك المهاجرون لتتمازج مع ثقافة ومعتقد الموطن الجديد، حيث حدث التأثر والتأثير الذي أنتج هذا التنوع الحضاري للثقافات والعبادات السومرية والأكدية والبابلية والكنعانية والآرامية والمصرية والإغريقية والرومانية، التي حملت الكثير من القواسم المشتركة والسمات المتميزة عن غيرها من الحضارات الأخرى. ومن هنا أيضاً أدخلت بعض العادات والتقاليد الوثنية إلى المذاهب والديانات التوحيدية، هذه العادات لم يكن لها ارتباط بالتوحيد والأوامر الإلهية والوحي. وهذا الخلط بين العادات والعبادات شكل مبرراً اعتمد عليه الكثير من الكتبة ورجال اللاهوت والسياسة بالعمل على تحريف النصوص والتعاليم التي أتت بها الديانات التوحيدية الكونية لتعميم سياسة المصالح والمبدأ المركزي

١- توماس طمسن ص 250.

٢- الكنعانيون عرب ساميون هاجروا من الجزيرة العربية إلى فلسطين واستوطنوا فيها قرابة ثلاثة آلاف وخمسمئة عام ق.م. وهم أول من اكتشف البرونز والأصبغة. وكانوا أصحاب حضارة ومدنية وصناعة. اشتهروا بتنظيم مدن وحكومات وفن وري وعمارة وطقوس دينية.

٣- القرآن الكريم سورة الأنبياء الآية 71.

(ديني هو الحق وما عداه باطل)، في حين أن الديانات التوحيدية متممة لبعضها البعض، وتحمل قيم الإيمان بالله الواحد، وتقف على قدم المساواة في مواجهة الإلحاد. والله يحاسب الناس على درجة إيمانهم بالرسالة التي هم فيها على قاعدة (..إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ..)[1].

إن ما قدمته من معلومات ونتائج للدراسات من وجهة نظر الباحثين المتخصصين إنما توخيت منه الإضاءة على حقيقة الأوضاع الجغرافية والمناخية والاقتصادية، والأسباب الموضوعية التي دفعت باتجاه الهجرة والاستيطان، والتي لا علاقة لها بالدعوة والعبادة والتوحيد وكلمة الله المقدسة المدّعاة من خلال انتحال الأحداث الواردة في الأسطورة الكتابية، والتي لا تزال تؤدي دورها السياسي والعنصري في الأحداث الدولية والجرائم بحق الإنسانية حتى يومنا هذا، كما يحدث في فلسطين والعراق وأفغانستان والسودان والصومال ولبنان من دمار وإفقار واحتلال وفتن مستقاة من التبني للقصة التوراتية والمركزية الغربية الاستعلائية الأصولية المتطرفة.

يلقي طمسن الضوء على بعض التناقضات في الحكاية الكتابية بقوله: (حتى منتصف السبعينيات (القرن الماضي) كانت البحوث الكتابية والأثرية تفهم الانتقال ما بين العهد البرونزي المبكر والبرونزي الوسيط بلغة النظرية القديمة لهجرة البدو الرحّل الساميين من شبه الجزيرة العربية. وقد ربط كثيرون تلك النظرية بالنصوص المسمارية والمصرية التي كانت تشير إلى (عموروعمو). وخلق المؤرخون تاريخاً للهجرات والغزوات العمورية التي اجتاحت الهلال الخصيب من الخليج الفارسي إلى دلتا النيل المصرية. وكان يعتقد أن هذه القبائل البدوية قد دمرت ثقافات العهد البرونزي المبكر ما بين النهرين وفلسطين، وإنها خلقت العهد الوسيط الأول لمصر. وبعد عدة قرون أدت إلى نشوء الهيمنة العمورية بين دول ما بين النهرين في سوريا وفلسطين. ربطت الآثار الكتابية تلك الحركة العمورية بحكايات الآباء الكتابيين، لا سيما بقصتي إبراهيم ويعقوب، فهي تقرأ وراء القصص تاريخاً لحركات الشعوب بفعلها هذا. خلقت البحوث الكتابية تاريخاً مزدوجاً لإسرائيل القديم: واحداً بصفة (شعب إسرائيل) بدواً رحلاً من شمال ما بين النهرين في أوائل الألف الثاني، وآخر بصفة رعاة أشباه بدو في نهاية العصر البرونزي قرابة (1200ق.م). ذلك التاريخ يعتمد على قصص كتابية منتقاة بعناية بسبب ترابطها المنطقي، فإبراهيم انتقل إلى أور في جنوب بلاد ما بين النهرين إلى حران في الشمال. من هنا دخل (كنعان) مع عائلته، ومع ذلك نزل يعقوب في مصر في وقت لاحق ليصبح هناك (إسرائيل) ويعود إلى فلسطين تحت اسم (يشوع).

١- القرآن الكريم سورة الحجرات الآية 13.

كان يعتقد أن تلك الرواية تعكس غزواً ثانياً لفلسطين قام به الإسرائيليون الذين اشتركوا في هجرة آرامية أوسع خلقت شعوب عبر الأردن)[1].

القصة المنتقاة بعناية وبترابط منطقي للثلاثية التوراتية، والتي تعتبر مركزية ومحورية تدور حولها الرواية الكتابية، ادّعاء انتقال إبراهيم من أوركلدان إلى الشمال في حرّان، ومن هناك انتقل إلى أرض غربته (كنعان) التي وعد بها كمرحلة أولى؛ ثم استقراره هناك تحت وعد آخر كان له ولنسله من بعده من الفرات إلى النيل مع إقصاء ولي العهد إسماعيل ابنه البكر، الموضوع المحوري في هذه القصة.

انتقل يعقوب من كنعان إلى مصر في قصة محبوكة أخرى، بسبب القحط والمجاعة في كنعان. ينتقل إلى مصر ليصبح إسرائيل، ومصر إمبراطورية ودولة قوية استطاعت وضع اليد على الجرح، فوجدت الدواء له بعد كرم وحسن وفادة بالغين. الأطماع لا تنتهي ومصر عصية، لا بد من ركوب موجة كتابية أخرى أقرب للتحقيق، فكانت فكرة الاضطهاد والعبودية؛ هذا ما تعلنه بصراحة الرواية التوراتية، بينما ليس هناك ما يشير لاضطهاد ديني أو مذهبي في تلك الحقبة داخل النص. وبما أن مصر غير مناسبة للاستيطان والتوسع كان لا بد من استضعاف قوم آخرين. العبرانيون في وادٍ وموسى التوحيدي في وادٍ آخر، فليكن الخروج، وفي الخروج انعتاق من العبودية وعودة للحرية. تم الخروج وعادت القبيلة العبرانية لعبادات وثنية (العجل الذهبي). هكذا فعل المصريون فأصبحوا دولة قوية. الإله هنا ليس المشكلة. استشعر النبي موسى بالخطر وكسر الألواح غضباً ووصف شعبه بأنه شعب قاسي الرقاب وسريع التقلب والغدر والخديعة لا يحتمل الوصايا الملقاة عليه، يريد أرضاً ومملكةً، يبحث عن إله يتوافق معه في مطالبه ويبرر أفعاله، ليس مهماً أن يسميه إبراهيم ويعقوب وإسحق (إيل أو إيليوهيم)، أو يسميه يوشع بن نون (يهوه). يتحول إسراءيل المضطهَد في مصر من مستعبَدٍ وعبدٍ يرزح تحت نير العبودية، إلى سفاح وقاتل وسالب ومُستعبِدٍ وغاصب في أرض كنعان فلسطين، ويتحول أيضاً اسمه إلى يوشع بن نون مع تغييب متعمد ومخطط للنبي موسى، فهو غير مؤهل لما تم التخطيط له. تلك هي الرواية الإشكالية التي يجري عليها الاختلاف الفكري والثقافي اليوم شرقاً وغرباً.

هنا يجب بعض الإيضاح والتصويب: عصر إبراهيم وإسحق ويعقوب في فلسطين هو عصر كنعاني آرامي فلسطيني بارتباطه بالجزيرة العربية، وتوحيد إبراهيم للإله (إيل) الواحد القدير، ولا علاقة له بعصر موسى التوحيدي المصري الآتوني الثائر على العبودية وتعدد الآلهة. أما عصر يوشع بن نون، الذي انفصل

١- توماس طمسن ص 221-222.

عن الدعوة الآتونية الموسوية خلال فترة التيه، فهو عصر استيطاني قومي سياسي دموي، يهدف إلى تأسيس دولة وكيان حتى لو اضطر لتبني الآلهة المحلية، وهو عصر غزاة وقطاع طرق مستوطنين حسب التفسير للرواية التوراتية.

هذا التوجه الشيطاني ابتدأ في واحة قديس (عين قادس)، المسماة توراتياً (قادش برنيع) (شكل رقم 2)، حيث أشارت إليه الآية القرآنية بوضوح في سورة الأعراف، والذي حُدِّد كسكنى لبني إسراءيل، وهناك ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾[1]

سيتم التطرق بالتفصيل إلى تلك الحقبة في الفصول التالية. وما ذُكِر عن عصر يوشع وما تم وصفه به أيضاً، كان استناداً للقراءة التوراتية التي بين أيدينا، ولا علاقة للقرآن الكريم بها، لأن القصة القرآنية تبجل تلميذ موسى يوشع بن نون المؤمن، ولا تنسب إليه ما نسب من موبقات في ادّعاء الرواية الكتابية في سفر يشوع المنتحل برمته داخل النصوص التوراتية!

١- القرآن الكريم سورة الأعراف الآية 162.